دلالة الشكل وبنية التكرار: قراءة في ومضة "مطاردة (2)" لعصام الشريف

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

مطاردةٌ (2)[33]

ـ :"ولا أنا.." و أكملَ طريقَه، توسلتُ إليه، لمْ يلتفتْ، صحتُ :"ألنْ يعرفَ أحدٌ ؟"،

ـ :"ولا أنا.." وأكملَ طريقَه..

النص بشكله الحالي وبوجود الشَّرطة في بداية السطرين يدل على حوار ما، وكأنها ومضة حوارية، ولكن يبدو أن الحوار ليس بين شخصين وإنما بين نصين: نص يشغل السطر الأول ونص يشغل السطر الثاني. ويشترك النصان في ""ولا أنا" وأكمل طريقه". والنصان معا يشكّلان نصا دائريا أو ومضة دائرية، فالبداية هي النهاية، الأمر الذي يُدخلنا في حدث قابل للتكرار، وهو في الغالب حدث وجودي أو لغز وجودي لا يستطيع الكاتب أن يجد تفسيرا له ومع ذلك يصر على الدوران في نفس الدائرة أو في فلك نفس السؤال.

[33] عصام الشريف. أطياف ومرايا. الكتاب الرابع في سلسلة ومضات قصصية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، مايو 2015. ص 31.

ومن الواضح أن عبارة "ولا أنا" رد على سؤال أو استفسار ما أو ملاحظة ما، ومن الملاحظ أيضا أن السائل والمسئول لا يعرفان الإجابة على ذلك السؤال أو لا يستطيعان تفسير اللغز المحير. ومن الملاحظ كذلك أن هذين الشخصين يسيران على نفس الطريق، ويبدو أن أحدهما يتوقف قليلا ليسائل خطواته ويطرح السؤال على الشخص الآخر الذي لا يقدم إجابة ولا يتوقف أيضا.

وعندما نمعن النظر في تركيب الومضة، نجد أن بها ثلاثة نصوص وليس نصا واحدا. ولكن بها نصا أساسيا يمثل اللحظة الحالية، ونصا قبله ونصا بعدا، والبداية هنا بداية من منتصف الحدث تنفتح على حدث آخر قبلها لا يتم ذكره إلا من خلال نهايته، لكنه مستمر وموجود في النص الأساسي الذي هو:

توسلتُ إليه، لمْ يلتفتْ، صحتُ :"ألنْ يعرفَ أحدٌ؟"، ـ :"ولا أنا.." وأكملَ طريقَه..

إذن نحن أمام شخصيتين تظهران في حدث أو مشهد النص الأساسي: شخصية متحركة تتمثل في هاء الغائب في "إليه" والفاعل في "يلتفتْ" وربما في "ولا أنا وأكمل طريقه"، وشخصية تتوقف وتطرح السؤال وتتوسل لكل عابر سبيل أو سائر على الطريق. وعندما ندقق في أسلوب

الإشارة إلى الشخص الأول، نجد أنه يظهر لأول مرة بعد حرف الجر في صورة ضمير غائب متصل، والاتصال هنا بحرف الجر، ولا يدل على اتصال مع الشخص الثاني، فهذا اتصال منعدم، بالرغم من إجابته على سؤاله. فالإجابة التي قدَّمها هذا الشخص نفيٌ للإجابة المرتقبة، وبالتالي لا تحقق الاتصال المرجو. إذًا الظهور الأول لهذه الشخصية ظهور مجرور، تابع، منكسر، مستسلم لطريقه أو مصيره أو جهله ولا يسعى للتوقف عند السؤال.

أما بالنسبة للظهور الثاني لهذا الشخص، فهو ظهور منفِيٌّ أيضا، فالفعل الذي يأتي فيه فاعلا وهو فعل يدل على التوقف وعلى الحركة في آن: إمكان أن يتوقف هذا الشخص ليحاول أن يتدبر السؤال الذي يطرحه الشخص الآخر ويحاول معه التوصل إلى إجابة، وإمكان أن يتوقف ويلتفت نحو الرجل الواقف ليتساءل على الطريق. ولكن الإمكانين موؤدان، لأن هذا الشخص لم يتوقف ولم يلتفت. وعدم التوقف يحتمل دلالتين هنا: أولا، هذا الشخص لا يعير من معه على الطريق اهتماما ولا يضع الآخرين في حسبانه، أو هو نسخة مكررة منهم؛ ثانيا، هذا الشخص لا يعير نفسه اهتماما أيضا، فهو يواصل السير على الطريق بالرغم من أنه لا يسأل السؤال ولا يحاول أن يتوصل إلى إجابة له.

والظهور الثالث لهذا الشخص يتمثل في ضمير المتكلم المفرد المنفصل "أنا" الذي يحتمل أن يكون مبتدءا لخير أو فاعلا لفعل حتى لو كان هذا الفعل يأتي في إطار جملة اسمية. ويمكننا أن ننظر إلى هذا الضمير من عدة زوايا.

أولا، الكلام الوارد على الشخصية نفي للأنا، وليست الأنا بمعناها في علم النفس التي قد تحتمل دلالات سلبية من وجهة نظر الأنا الأعلى الذي يسلّط – ربما بمعنى يمنح نفسه السلطة – رقابته ووصايته على الأنا. فنفي الأنا هنا يمثل إعدام الذات أو انعدام الذاتية أو غياب المرء عن ذاته، خاصة عندما نقرن ذلك بالطريق التي تسير عليها الشخصيات في الومضة.

ثانيا، الفاعلية أو المبتدئية منفية أيضا عن ذلك الشخص، فيمكننا أن نبصر في "ولا أنا" بداية جملة تحتاج إلى خبر سواء أكان هذا الخبر اسما أو صفة أو كان جملة فعلية يكون فيها هذا الشخص فاعلا وربما كان هذا الفعل يحتاج إلى مفعول مثل "الإجابة". وحَذْفُ الخبرِ هنا توحي بأن هذا الشخص لا يمكنه أن يكّوِّن جملة مفيدة، وربما حياته ذاتها ليست جملة مفيدة، وربما لا يستطيع الإخبار نحويا في الجملة ويمتد ذلك ليشمل عجزه عن أن يقدّم خبرا أو معلومة للسائل.

ومن الواضح أن هذين الاحتمالين احتمالان وجوديان. أما الاحتمال الثالث للتأويل، فهو احتمال ميتافيزيقي. الأنا حضور للذات، هي الاسم في

صفائه وماهيته وحضوره، وهنا استحضر ما ورد في سورة البقرة على سبيل المثال عن "الأسماء كلّها" التي علّمها الله سبحانه وتعالى لسيدنا آدم. وبالرغم من أن الكثيرين يفسّرون "الأسماء" على أنها اللغة التي علمها الله لآدم، أرى أنها ليست اللغة، فالله قبل ذلك يخاطب الملائكة ويستخدم اللغة وكذلك الملائكة يفهمون هذه اللغة ويستعملونها. إذن الأسماء خاصة بالطور الجديد من الوجود الذي يؤهل الله آدمَ لتمثيله أو تجسيده، وهو الوجود على الأرض. ما علاقة ذلك بالومضة التي بين أيدينا؟ الضمير الوارد فيها – "أنا" – حضور للاسم، لوجود الذات، للوجود كله. و"أنا" ضمير يأتي على لسان الشخصية التي تتخذ في كل لحظة شكلا مختلفا، فـ "أنا" في بداية الومضة غير "أنا" في آخرها وغير "أنا" التي سبقت البداية السردية وغير "أنا" التي ستأتي لاحقا بعد نهاية نص الومضة دون نهاية تجربتها الفنية ودون نهاية حدثِها، نظرا للطبيعة الدائرية للحدث وهي طبيعة ناتجة عن دائرية بناء الومضة، ونظرا للأشخاص المختلفين الذين طرحت عليهم الشخصية الأخرى السؤال والذين ستطرحه عليهم. وكون "أنا" منفية بـ "لا" وكونها مسبوقة بواو العطف يدلان على غياب وجود الشخص الذي لا يعرف ولا يتوقف، وعلى أن هذا الشخص يضيف إجابته – التي ليست إجابة – إلى إجابات "أنوات/نحن" آخرين سبقوه وسيضيف اللاحقون "إجاباتهم" إليها أيضا.

أما الظهور الرابع للشخص الأول فيتمثل في كونه فاعلا في "وأكمل طريقه". وهذه الفاعلية فاعلية منفية أيضا بالرغم من أنها في صيغة الإثبات، فهو إثبات نحوي فقط دون أن يقترن به إثبات دلالي أو ذاتي، فهو نفي للذات، لأن هذا الشخص يكمل طريقه مثل باقي الأشخاص الذين سبقوه ولم يتوقفوا.

ويتمثل ظهوره الخامس المشتمل في ظهوره الرابع في كونه تحول إلى ضمير متصل كما في البداية، وهو مجرور أيضا ومضاف إلى الطريق، وهذه الإضافة – بالرغم من أنها نحويا تجعل هذا الشخص مالكا للطريق – تجعله دلاليا وتأوليا وفنِّيًّا، بناءً على سياق استعمال الضمائر في الومضة، مضافا إلى الطريق، فهي ليست ملكه ولا يعرف حتى كيف يتوقف ليجعل خطوته على هذا الطريق – وأقوم بتذكير الطريق قاصدا – ذاتية وليست آلية.

هذا بالنسبة للشخصية الأولى التي تشبه شخصيات قبلها وشخصيات ستأتي بعدها، أما بالنسبة للشخصية الثانية، فهي شخصية الراوي الذي يستعمل ضمير المتكلم في السرد:

توسلتُ إليه، لمْ يلتفتْ، صحتُ :"ألنْ يعرفَ أحدٌ ؟"

ويمكننا أن ننظر إلى هذا المقطع على أنه ومضة مستقلة بذاتها ومكتملة. ويظهر الراوي – بصفته مشاركا في الحدث – في فعلين يقوم فيهما بدور الفاعل، ووجوده عبارة عن ضمير مستتر وليس متصلا أو منفصلا أو خاليا من الفاعلية أو الذاتية أو الوجود مثل الشخصية/الشخصيات الأخرى. وأستطيع أن أبصر في استتار ضمير الفاعل هنا ابتعادا عن الاتصال الذي يقضي على الذات وعن الانفصال المنفي وعن الجر وعن الإضافه. فبالرغم من أن ضمير الفاعل غير ظاهر، تتجسد فاعليته بطريقة لا تستطيع الضمائر الظاهرة – المتصلة أو المنفصلة – التي تشير إلى الشخصية أن تحقق ذرة واحدة منها.

وسننظر الآن إلى الفعلين اللذين يكون فيهما الراوي فاعلا، لنرى مدى ارتباطهما بما استنبطناه من جماليات استعمال الضمائر في هذه الومضة. الفعلان مثبتان وإثباتهما نحويا أو دلاليا يدل على الإثبات الجمالي الذي استدعى التوقف على الطريق وطرح السؤال أيا كانت طبيعة السؤال: استفهام مباشر، استجواب، تقرير للحيرة، استفسار، جملة خبرية تنم عن عدم المعرفة، الخ.

الفعل "توسَّلتُ" يدل على الرجاء، الإلحاح، طلب المعرفة، وقد يدل أيضا على عدم توازن ميزان القوة أو السلطة – ولا أدري لماذا كتبتُ "السلطة" في البداية على أنها "السطلة" – بين المتوسِّل والمُتَوَسَّل إليه، ومن

الواضح أن الشخص المتوسّل إليه أقوى أو أعلى مكانة – ظاهريا في سياق الومضة – من الشخص المتوسِّل.

واقتران هذا الفعل سياقيا بالفعل "يعرف" الوارد على لسان الراوي في السؤال الذي يطرحه ولا يجيب عليه أحد – يدل هذا الاقتران على أن التوسل متعلق بطلب المعرفة، ومن الواضح أن الراوي يظن أن هذا الشخص أكثر منه علما ومعرفة ودراية، ولكن سياق الومضة وسؤال الراوي المنصوص عليه فيها يدلان على أن هذا الظن ليس في محله، الأمر الذي يسبب نوعا من الإحباط أو خيبة الأمل لدى الراوي ويدفعه لأن يصيح أو يصرخ أو يستنكر أو يعبر عن قلقه الوجودي – وربما هذا القلق ليست له علاقة مباشرة بالقلق الوجودي في الفلسفة الوجودية الغربية. فهو قلق له أبعاد إنسانية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية، معرفية، وطنية، جغرافية، الخ. كما أنه يربط بين الوجود وعله الوجود حتى لو كان ظنه السابق ليس في محله، حتى لو كان هذا الظن أخطأ الهدف المظنون فيه: أي أن الشخص الذي يتم توجيه السؤال له ليس هو المقصود، وربما كان توقف الراوي على الطريق اشتباه الموجّه إليه السؤال أو المتوسّل إليه عليه (الراوي)، الأمر الذي قد يجعلنا ننظر إلى الراوي ذاته على أنه في المكان الخطأ أو يتوجه بالسؤال إلى الشخص الخطأ أو يلتبس عليه أمر دربِه ذاته فيسعي إليه في صورة ليست لها علاقة بالدرب الأصلي المفتقد حتى الآن.

وننتقل الآن إلى السؤال: "ألن يعرف أحد؟"، وهو سؤال لا يأتي قبله حال بعد "صحت" يحدد طبيعة الكلام الذي يحتوي عليه أو يعبّر عنه الصياحُ، مثل قائلا، متسائلا، متعجبا، مستفسرا، مستسلما، محتجًّا، الخ. ونجد أن "لن" حاضرة في السؤال لتوحي لنا أن كل من مروا على الطريق من قبل لم يعرفوا (السؤال، الإجابة، التوقف، التقاط الأنفاس، التأمل، الخ). ومن المعروف أن "لن" تدل على النفي في المستقبل، ولكنه نفي مقرون بتساؤال يتطلب الإجابة بالنفي أو الإثبات، وبالتالي يتساوى احتمالا الإجابة، كما أن السؤال بصيغة المستقبل يوحي بأن الراوي سيظل يطرح السؤال على نفسه وعلى غيره، الأمر الذي يوحي بأنه سيحافظ على خطواته على درب السؤال والرغبة في الارتواء، أيا كان هذا الارتواء.

ونعود الآن إلى بنية الومضة ككل لندرك أن الومضة تبدأ بإجابة مار أو عابر سابق على السؤال، ثم تسرد الموقف كاملا – وهو موقف يتكرر في عالَم الراوي – وتنتهي عند نهاية هذا الموقف، الأمر الذي يفتح الومضة على احتمالين جائزين أو واردين. يتمثل الاحتمال الأول في أن بنية التكرار في الومضة قد توحي بأن نفس الموقف سيتكرر مع أشخاص آخرين (وربما إلى ما لا نهاية). أما الاحتمال الثاني فيفترض أن انتهاء الموقف بنهاية نص الومضة يفتح المجال أمام احتمال مغاير في المستقبل نجد فيه إجابة على

السؤال، ويدعم ذلك تساوي احتمالي الإجابة عن السؤال الوارد في الومضة ويتعلق بالمستقبل.

كما أن ورود الومضة على شكل حوار بين شخصين وتفسيرنا لذلك أعلاه بأن الومضة نصان وليست نصا واحدا – ورودها بهذا الشكل يجعلنا ننظر إلى النص الأول على أنه يجمع بين الراوي والشخصية الأخرى ويحدد السمات المتفردة لكل منهما، وننظر إلى النص الثاني على أنه ومضة مروية بضمير الغائب عن الشخصية الأخرى التي تمتثل لجهلها وعدم محاولتها التوقف أو التساؤل أو المشاركة في البحث عن إجابة.

وشكل الحوار في النص الإجمالي يفتح الباب فنيا وبنائيا على ورود نص ثالث في سطر منفصل يسرد فيه الراوي بضمير المتكلم ومضته أو قصته أو حكايته أو ما فعله بعدما أدرك أن الشخصية الأخرى لن تستطيع أن تقدم له شيئا: فإذا كان السطر الأول يجمعهما معا وكان السطر الثاني تنفرد به الشخصية الأخرى، فلابد بنائيا من مجيء سطر ثالث ينفرد به الراوي ولا تظهر فيه الشخصية الأخرى، الأمر الذي يوحي بأن الراوي لم يسجل أو يكتب أو يلقي أو يغرس قصته أو ومضته بعد.